# الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

## الله نور السموات والأرض

للأستاذ حسنى طه شكيبان

## ٢ ـ فطرة الحياة

**الفصل الثانى :**

**قلنا** ـ ان هدف الانسانية الأسمى هو التطور المطرد نحو الكمال البشرى ، وارساء قواعد الحضارة الكبرى وتعمير الأرض فى كنف السعادة وهيمنة السلام .

**والآن :** فما رسالة الانسانية فى هذا الوجود من رسالة محمد الكريم وشخصيته وحديثه ؟

**الانسان** ـ فى رسالة محمد ـ خليفة الله فى أرضه ، خلقت الأرض وما فيها من أجله ودارت من حول الشمس ، ودار من حولها القمر لتكون الشمس والقمر والكواكب والنجوم مسخرات فى خدمة هذا الكائن الكريم ـ الانسان ـ ثم عليه أن يعمل جهده كى يستغل لسعادته كل هذه الطاقات فى أرض وفى سماء .. تحقيقا لخلافة الله له ..

**وتظهر** خلافته حقا ـ حينما يترسم نظم الله العظيم فى الكون فيسير عليها ، ويهتدى بأخلاق الله ـ تعالى ـ فيتخلق بها .. فهو يرى السماء مرفوعة بغير عمد ، والنجوم فى مجرات وسدم فى تجاذب دقيق ، ودوران عجيب ، والكواكب السيارة من حول مراكز مضيئة بذاتها تسمى الشمس وكل أولئك يحكى قصة الابداع فى الخلق ، والروعة فى التسخير .

وعليه أن يحكى فى الأرض قصة الابداع فى السماء .. عليه كما قال رسول الانسانية مبينا عن رسالة الانسان الرائعة : تخلقوا بأخلاق الله .. وفى سبيل هذه الخلافة عليه أن يستغل كل طاقة ممكنة فى أرض أو فى فضاء لحكمة وهدف كريم ـ كما هو جلال الله فى خلق الوجود .

**ولقد** أودع الخلاق العظيم فى الكون المادى من القوى ـ العجيب والمحير ، فأصغر حجر فى بنائه وهو : الذرة ـ حملها الخلاق من الطاقة المدمرة ـ أو المعمرة ـ ما يمكن أن يكون خطيرا فى سير الحياة ، فكيف بطاقة العقل وقوى الروح فى الانسان ؟. فاذا سخر هذه واستغل قواها فان عليه أن يبحث عن فيض القوى الزاخر فى عقله وروحه أثباتا لهذه الخلافة الكريمة

وهو صائر لذلك سريعا ما فهم رسالته الحقة كما أوضحتها دعوة محمد الكريم وشخصيته ٠

ان الكون المادى ـ على ضخامته التى لا تحد ـ مخلوق من أجل الانسان ٠ والانسان ـ فى رسالة محمد الكريم ـ مخلوق من أجل الله العظيم رب الوجود ، ومن ثم فقد زوده بروح الوجود ، وسر الوجود ٠٠ زوده بروح الحق ، وعبقرية الفهم ، وحكمة المعرفة ٠٠ زوده بقبس من الروح الأعظم المهيمن على الوجود كله ٠٠

وبهذا القبس ـ كان خليفة لله الكريم ـ وبه يسخر طاقات الوجود فى المادة والحياة ٠

ومن هنا كانت الأرض ذرة يسيرة فى مجال رسالة الانسان ، وعليه أن يجعلها قطعة من النور ، ومهدا لاطلاق قواه ـ لا فى صواريخ وأقمار تدور حول الأرض والشمس بل لتجوب آفاق المجرات والسدم ٠٠ ثم ترقى لتجوب آفاق السموات من خلف المادة ، ولتنغمر فى بحار النور العليا ـ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ٠

وسبيل ذلك ـ فى رسالة محمد ـ ألا يترك الانسان لحظة من حياة، ولا نبضة من طاقة ، ولا ومضة فى عبقرية ، ولا مضمارا فى أفق ـ الا جاب رحابها ووجهها فى سبيل الخير والحق الأقدس ، وبنـــاء صروح السعادة فى الارض والسماء ـ بنفسه ومع الانسانية الفاهمة لرسالتها ولنسمع ذلك كله ـ وفوق ذلك ـ من نصوص رســـالة محمد الكريم وشخصيته وأحاديثه ٠

الانسان خليفة الله فى أرضه مزود بروح الحق وسر الوجود :

**« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ٠٠ »** البقرة ٠

**« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ٠٠ فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ٠٠ »** ص ٠

ثم هو مزود بفطرة وعقل وبصيرة ينفذ بها الى أسرار الوجود وعظمة الخلق والخلاق :

**« وعلم آدم الأسماء كلها ٠٠ »** البقرة ٠

ثم الأرض وما فيها ملك يمينه ، والسموات وما تحمـــل مسخرة فى خدمته :

**« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ٠٠ ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٠٠ »** الجاثية ٠

**« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ٠٠ »** الملك ٠

والنجوم - والشمس والقمر والليل والنهار لسعادته ومن أجله بنظامها الدقيق :

**« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات • ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره • ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • (١٢) وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه • ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون ( ١٣ ) وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ( ١٤ )• وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون • (١٥) وعلامات وبالنجم هم يهتدون • (١٦) سورة النحل •**

ثم الانسان ــ بما أودع فيه الخلاق من روح الحق الأعلى ــ يستطيع أن ينفذ الى آفاق السموات مخترقا أقطار الأرض وجاذبية النجوم •• قال تعالى :

**« يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا •• لا تنفذون الا بسلطان •• الرحمن •**

وقد نفذ الانسان اليوم بسلطان العلم الى أفق صغير فى المجموعة الشمسية ، ولكنه غدا ــ قريبا ان شاء الله ــ سينفذ الى أبعد مدى وأروع غاية ••

أما الصوفية الكرام فقد فهموا رسالة الانسان الحقة ، ومن ثم نفذوا الى آفاق الوجود العليا فى السموات ومن فوق السموات حينما كانوا هنا فى الأرض وبعدما صعدوا الى السماء بسلطان الروح فى هدى الحكمة الربانية تخلقا منهم بأخلاق الله ــ كما قال الامام الأعظم محمد الكريم •• ونحن بحمد الله واصلون لهذه الافاق ــ قريبا بتوفيق الله ــ ففضلا عن أن هذه سنة الكون المتطور نحو الكمال ، فهو وعد الخلاق العظيم :

**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا الفتح •**

**« ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون •• » التوبة •**

**« وان غدا لناظره قريب •• ولتعلمن نباه بعد حين » آخر ص •**

أما سبيل الانسانية لذلك فهو طريق العلم •• العلم بكل شىء فى الوجود صغيرة وكبيرة ولن تجد الانسانية تقديرا للعلم ودفعا اليه كما تجده فى رسالة محمد وأحاديثه وشخصيته ــ على الاطلاق •

**« قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون • انما يتذكر أولو الألباب (٩) الزمر •**

فالعلماء أعرف الناس بأسرار الوجود ، وهم لذلك أقرب الناس الى الله :

**« انما يخشى الله من عباده العلمـــاء ••• (٢٨) » • فاطر•**

ولذلك فهم يشهدون شهادة الحق الأعلى مع الملائكة الكرام :

**« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (١٨) • آل عمران •**

ودعوة محمد ورسالته موجهة لأصحاب العقول وأرباب المعرفة فهم أهل القيادة نحو الكمال ودعائم الحضارة والسلام •• قال تعالى :

**« ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • (١٩٠) » آل عمران •**

ومجال بحثهم كل ذرة فى الكون من البداية والى النهاية من الذرة الى السموات فى المادة وفى العقل وفى الحياة •• قال تعالى :

**« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض •• (١٠١) » يونس • « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى •• (٥٠) » طه • « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء •• (١٨٥) » الأعراف •**

**« وفى أنفسكم أفلا تبصرون • (٢١) » الذاريات •**

**« ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها • (٨) » الشمس •**

والوجود مخلوق للانسان :

**« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منـــه •• (١٣) الجاثية •**

أما هو فمخلوق للرحمن :

**« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • (٥٦) » الذاريات •**

والعبادة فى معناها الحق •• المعرفة •• التعرف على الكون كله عروجا فى مراقى الحكمة نحو الله العظيم • **« انما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨) » فاطر • « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •**

ثم بعد :

فالناس أمام هذه النصوص أحد رجلين •• مؤمن بالله •• أو مادى لم يفتح بصيرته لنور الحق فى الوجود •• وكلاهما ملزم بما ورد فيهـــا توضيحا لرسالة الانسانية من دعوة محمد المنزلة عليه والتى قام بها •

فأما المادى - فالحجة عليه أوجب - فهو يعتقد أن هذه النصوص ثمرة العبقرية المحمدية - ومن ثم فلن يجد لهذا التفكير نظيرا لكائن قبل محمد أو بعده . وجه ويوجه الانسانية لأجل رسالة وأروع عمل .. انه استغلال لطاقات الوجود كلها .

وأما المؤمن فأحد رجلين .. مسلم وغير مسلم :

وغير المسلم - ان آمن بالوحى الربانى منزلا على محمد فمعناه أنه رسول الانسانية الأكبر حيث لم يسبق بهذا الأمر ، ولم يخص الله رسولا قبله بهذا الوضوح والقوة فى فهم رسالة الانسان - حيث آذنت الانسانية فى عهده بأن تشب عن الطوق وترقى فى سلم الحضارة درجات .

وفى ذلك يقول الأستاذ خ . كمال الدين - فى كتابه الانجليزى - المثل الأعلى فى الأنبياء - ص ٦٣ : « ومن مفاخر الاسلام أنه أسدى الى العلم والثقافة من الأيادى البيضاء ما يفوق ما أسدته المسيحية بكثير ، وانه كان يشجع دائما حرية التعليم ، ومع ذلك كان أغزر الناس علما أسبق الناس لتأييده .

وقد أثارت هذه الظاهرة احدى الصحف الانجليزية فى الهند فلم تجد مندوحة من الاعتراف بأن الحرية العلمية فى الغرب أدت الى افلاس العقيدة الدينية واثارة الشكوك ، ونشر المذهب المادى .. على حين أنها أدت فى الاسلام الى زيادة تمسك المسلمين بدينهم » .

وقد نعود لهذا المقام بتفصيل .

وأما المسلم فقد يعترض بأننا أوردنا النصوص من القرآن الكريم كتاب الله فأين هذا من رسالة محمد وحديثه ..؟

فليسمع وليسمع كل باحث عن الحق :

ان يكن هناك شخص فهم رسالة الانسانية لله أجل صورة ثم قام بتنفيذها وارساء قواعد الرقى نحو الكمال على دعائم راسخة ، وجنود يواصلون الرسالة الى الأبد .. فهو محمد الكريم . استمع اليه يقول عن رسالة السمو فى الحياة : مال للخير ، وحكمة للهدى :

« لا أحد الا فى اثنتين . رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يتعلمها ويعلمها للناس .. » وعلى الانسان أن يجمع الدنيا والآخرة :

« ليس خيركم من صنع دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، وانما من أخذ من هذه وتلك » . « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وعلى الانسان أن يتعمق الأسرار بحثا عن الأرزاق فى المناجم والصحارى والبحار .. « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض .. » .

وعلى الانسانية الرشيدة أن تضع كل انسان حيث ينتج أكرم انتاج ويعمر أصلح تعمير : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وليعمل المرء فى جد لا يصرفه تعطل أو لهو أو شك « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » . « والايمان — الحق فى رسالته — قول وعمل » .

ولا قيمة لايمان دون عمل : « الايمان ما وقر فى القلب وصدقة العمل ، وان قوما لا يعملون ويقولون نحن نحسن الظن بالله — وكذبوا : لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

ورسالته ورسالة أهله وأتباعه العمل فى سبيل الخير والحق :

يا فاطمة بنت محمد اعملى فلن أغنى عنك من الله شيئا .

يا آل عبد المطلب .. يا آل هاشم .. يا آل عبد مناف .. اعملوا فلن أغنى عنكم من الله شيئا . لا يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالنسب .. انما النسب عند الله هو التقوى » . والتقوى فى رسالته ايمان واخلاص وعمل صالح وقول طيب .

أما الدنيا والآخرة فيتفاوت فيها الناس بعقولهم وأعمالهم الصالحة ، ومن ثم لا يفهم رسالته ولا يقوم بها حق قيام كما يكون أصحاب العقول والمعرفة .

« يا رسول الله : بم يتفاوت الناس فى الدنيا ؟ . قال : بالعقل ياعائشة . قالت : وفى الآخرة : قال : بالعقل . قالت : أو ليسوا يدخلون الجنة بأعمالهم ؟ قال : وهل عملوا الا بما عقلوا .. »

ولذلك كانت رسالته فى الحياة تربية وتعليما حتى تفهم الانسانية رسالتها الحقة فى حب وتكافل ومعرفة : انما بعثت معلما .. انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ورسالة الانسان فى نظره معرفة متواصلة فى كل الآفاق : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » . « العلم فريضة على كل مسلم .. » فذلك سبيل سعادة الدنيا والآخرة : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » . « تعلموا العلم ، فبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو منار الجنة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على الضراء ، والوزير عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء » .

والعبادة فى رسالته هى العلم والمعرفة : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . « درس علم خير من عبادة ستين سنة » ، « يرجح مداد العلماء دماء الشهداء يوم القيامة » . الخ ..

وهكذا كانت رسالة الانسانية فى أحاديث محمد الكريم رسالة المعرفة بكل ما فى الوجود وعمل فى كل أفق بالخير وللحق والسلام .

وما أن فهم العرب ذلك على يد معلمهم الأكبر حتى تجمعوا بعد فرقة ثم انطلقوا ليفتحوا آفاق المعمورة فى ثلثى العالم فى أكبر فتح عرفه التاريخ

وكان لهم من الأثر فى تحضير الانسانية بالعلم والمعرفة ما شـــهد به الجميع ٠٠ يقول المستشرق درابر : فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا من الأسلوب الذى توخـــوه فى مباحثهم — ثم قال : ثم هذا الأسلوب هو الذى أوجب لهم الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، واكتشاف علم الجبر ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية ٠٠ » ٠

أما التاريخ فيشهد على لسان مستشرق آخر : أنه لولا المدنية الاسلامية فى اسبانيا لتأخرت المدنية الأوروبية قرونا عديدة ، « وانه لو أتيحت لجيوش المسلمين أن تخترق جبال البرانس الى قلب فرنسا دون هزيمة فى موقعة بورتوافيه — لتقدمت قرونا أخرى ٠٠ » كما يشهد بأنه فى الوقت الذى كانت فيه أوربا بأسرها قطعانا بشرية ضالة تقطع الطرق ، وتعيث فى الأرض الفساد دون وازع من خلق أو معرفة كانت البـــلاد الاسلامية تنعم بسكينة واصلاح ومعرفة لا حد لها ٠٠ ( ولنا مع هـذا عودة بتوفيق الله ) ٠

أما محمد الكريم فى نفسه فسيشهد التاريخ بأنه كان مجموع الانسانية فى انسان أصدق الناس حديثا وأبر الناس وأكرم الناس يقوم بأعمـال لو وزعت على عشرات لأعيتهم ، خير الناس فى أهله وحاجتهم وأوصلهم لرحمه ، وأحرصهم على مصالح الناس فهو الذى يقول : « خيـــر الناس أنفعهم للناس » وأحب الناس الى الله أنفعهم لعياله » لقد كان امـــاما فى الصلاة وقائدا للجيوش فى سبيل الحق ومربيا وقاضيا وواعظا ومرشدا وخبيرا بالنفوس وراعيا لشئون أمته ، وكان معاهدا للسلم وفى الحرب وملاذا لكل خائف ومرجعا لكل مشكلة ، أحاط بالانسانية وشئونها فلا تكاد الانسانية تجد مشكلة الا ووجدت لديه علاجا حتى أطلق لسان كبير كتاب انجلترا برنادشو قائلا : « لا بد أن تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن ولو أن محمدا ( صلى الله عليه وسلم) بعث فى هذا العصر وكانت له الديكتاتورية على هذا العالم الحديث لنجح تماما فى حل جميع المشكلات العالمية ، وقاد العالم الى السعادة والسلام ٠٠ »

ذلكم هو محمد الكريم فى مقياس الفطرة لفهم رسـالة الانسانية فى الحياة ٠٠ الانسان الكامل والمثل الأعلى لرقى البشرية نحو الكمال ٠٠ والى لقاء كريم والسلام عليكم ورحمة الله ٠

**حسنى طه محمد شكيبان**
**بمعلمات راس التين**
**اسكندرية**